شكّلت اللّغة منذ القديم محور اهتمام الإنسان، فسعى إلى دراستها ومعرفة أسرارها عبر دراسات حاولت الكشف عن طبيعتها ونشأتها وكيفيّة استعمالها، والعوامل المختلفة التي تتدخّل في عمليّة نطقها وأدائها أداء فعليّا، والعوامل الخارجيّة المؤثرة في إنتاج المعنى.

كما نجد أن الإنسان حاول منذ القدم الاتصال بمن حوله من أبناء جنسه متخذا وسائل عديدة لتحقيق ذلك التّواصل، ولعلّ أهم تلك الوسائل اللّغة، هذه الوسيلة التي نستخدمها في حياتنا اليوميّة للاتصال بأفراد مجتمعنا، ولا نكاد نشعر بصعوبةٍ في استخدامها، غير أنّنا قد نحار إلى حدٍّ ما في إدراك كنهها ومعرفة طبيعتها ووظيفتها وطرائق تحليلها، وأوّل ما يلفت الانتباه في هذا الشّأن صعوبة تحديدها، أهي مقصورة على ما يتجسّد في تلك الأحاديث المتبادلة بيننا،كتابة ومشافهة أم أنّها تشمل أنواعا كتلك التي نسميها في تعبيراتنا لغات، مثل ما يعرف بلغة العيون ولغة الحيوانات كالنّمل والنّحل، ولغة الصم والبكم، ولغة الرسم والتصوير والنحت ولغة الخيالة، ولغة الإشارات !.

واللّغة في معناها اللغوي تعني:" لغَا في القَول ـُ لَغْوًا: أَخطأَ وقال باطلاً، ويقال لَغَا فلان لَغْواً: تكلَّم باللَّغو. ولَغَا بكذا: تكَلَّم به، ولَغَا عن الصَّواب، وعن الطَّريقِ: مَالَ عنْه. ولَغَا الشَّيءُ: بَطَلَ. ولَغِيَ في القول ـَ لَغًا: لَغَا، ولغي بالأمر: أُولِع به، ولغي بالشيء: لزِمَه فلم يفارقه ولغي بالماء والشراب: أكثر منه وهو مع ذلك لا يَرْوَى، ولغي الطائرُ بصوته: نَغَمَ".

وعلى هذا فإنّها تأخذ معاني عدّة بحسب وجودها في الاستعمال، أمّا في المعنى الاصطلاحي فقد عرّفها ابن جني بقوله: "حدُّ اللّغة أصواتٌ يُعبِّر بها كلُّ قوْمٍ عنْ أَغراضِهم"، وقد نظر علماء الاجتماع كذلك إلى وظيفتها في المجتمع، فنجد العلماء الغربيين ذهبوا إلى تعريفها بأنّها: "نظام من رموز ملفوظة عرفيّة بوساطتها يتعاون ويتعامل أعضاء المجموعة الاجتماعية المعنية".

ويعرفّها إدوارد سابير Edward sapirبقوله: "اللّغة منهج Method بشرى صرف غير غريزي لإبلاغ Communicating الأفكار Ideas والعواطفEmotions والرّغبات Desired بواسطتها نظام من الرموز Symboles المحدثة اختيارا".

وفريق آخر وهم علماء الفلسفة والمنطق نظروا إليها باعتبار وظائفها. فيجعلون للغة ثلاث وظائف هي:

١- كونها وسيلة للتّوصيل.
٢- كونها مساعدا آليا للتّفكير.
٣- كونها أداة للتّسجيل والرّجوع.

إذ نظروا إليها من جانبها التّواصلي، والتّفكيري، وكذا جانبها الاسترجاعي؛ أي استرجاع الأفكار.

فاللّغة وسيلة تواصل، فهيّ تتأثّر بعوامل كثيرة نجمل أهمّها في: عوامل اجتماعية خالصة تتمثّل في حضارة الأمّة ونظمها وعاداتها وتقاليدها وعقائدها ومظاهر نشاطها العملي والعقلي وثقافتها العامّة واتجاهاتها الفكرية ومناحي وجدانها ونزوعها، كما تتأثّر اللّغة بلغات أخرى وهذا ما تعانيه الدّول التي عانت ويلات الاستعمار، خاصّة التي طالها هذا الاستعمار،وعوامل أدبيّة تتمثّل فيما تنتجه قرائح النّاطقين باللّغة، وما تبذله معاهد التّعليم والمجامع اللّغوية وما إليها في سبيل حمايتها والارتقاء بها. وعامل آخر وهو انتقال اللّغة من السّلف إلى الخلف.وعوامل طبيعيّة تتمثّل في الظواهر الجغرافية والفزيولوجيّة. وعوامل لغويّة ترجع إلى طبيعة اللّغة نفسها وطبيعة أصواتها وقواعدها ومتنها.

وبالتالي فإنّ عناصر اللّغة نفسها قد تنطوي على بعض نواح تؤثر في تطوّرها، وخير مثال يُضرب في انتقال المعنى وتطوّره هو استعمال اللّغة معنى مجازي لسبب اجتماعي، مما يؤدّي إلى انقراض معناه الحقيقي وحلول ذلك المعنى المجازي محلّه !.

وتتعدّد جوانب اللّغة وتختلف إذا نظرنا إلى طبيعة اللّغة وصورها، فقد اختلفت الآراء وتعدّدت الوظائف التي اهتمّت بها ودرستها، " وتتمثل الطّائفة الأولى في دراسة تلك الجوانب التي تتصل بجوهر اللّغة وحقيقتها والتي ترتبط بعناصرها الأساسيّة المكوّنة لها، وهي عبارة عن أصواتها وصيغها وتراكيبها ثم مفرداتها ومعاني هذه المفردات، وكل ما يتّصل بها من قضايا".

١- **الجهاز الصّوتي:** أو النّظام الصّوتي الذي يدرس الصّوت أو علم الصّوتيات Phonology مستخدما عناصر عدّة.

أ- معطيات علم الأصواتPhonetics، وهي أوصاف للحركات العضويّة التي يقوم بها الجهاز النّطقي أثناء النّطق، وكذلك الآثار السّمعية المصاحبة لهذه الحركات.

ب- طائفة من العلاقات العضويّة الإيجابية وطائفة أخرى من المُقابلات* للتّفريق بين أيٍّ صوت وصوت آخر، ولو من جهة واحدة على الأقل، وقد تكون من أكثر من جهة وذلك كالعلاقة بين الباء والميم إذ تشتركان بالعلاقة العضويّة في المخرج الشّفوي والجهر وتُفارق إحداهما الأخرى بالقيمة الخلافية، إذ تكون بينهما مقابلة** من حيث الأنفيّة وعدمها والشّدة وعدمها.

٢- **النظام الصرفي:** مكوّن من ثلاث دعائم هامّة:

أ-مجموعة من "المعاني" الصّرفية التي درج بعضها إلى " التّقسيم " كالاسميّة والفعليّة والحرفية، ويرجع بعضها الآخر إلى التّصريف كالإفراد وفروعه والتكلُّم وفروعه وكالتّذكير والتّأنيث والتّعريف والتّنكير، ويرجع بعضها الثّالث إلى مقولات الصيّاغة الصّرفية كالطّلب والضّرورة والمطاوعة والألوان والأداء والحركة والاضطراب أو إلى العلاقات النّحوية كالتّعدية والتّأكيد.

ب-طائفة من "المباني" Morphemes تتمثل في الصّيغ الصّرفية وفي اللّواصق والزّوائد والأدوات فتدلُّ هذه المباني على تلك المعاني أحيانا بوجودها إيجابا وأحيانا بعدمها سلبا، وهو ما يسمّونه (Zero morpheme)، ويسميه النّحاة "الدّلالة العدميّة" وهي نفسها دلالة الحذف والاستتار والتّقدير والمحل الإعرابي عندهم .

جـ-طائفة من العلاقات العضويّة الإيجابية وأخرى من المقابلات أو القيّم الخلافيّة بين المعنى والمعنى وبين المعنى والمبنى كالعلاقة بين "ضرب" و" شهم" من حيث تشابهها في الصيغة، فهي "فعل" فيهما، وكالمقابلة التي تتمثل في القيمة الخِلافيّة بين أحدهما والآخر من جهة المعنى فأوّلهما "مصدر" وثانيهما"صفة مشبّهة"...

٣- **النّظام النّحوي:** يتكوّن ممّا يأتي:

أ-طائفة من المعاني النّحوية العامة كالخبر والإنشاء والإثبات والنّفي والتّأكيد وكالطّلب وفيه الأمر والنهي والاستفهام والدّعاء والتّمني والتّرجي والعرض والتّحضيض وكالشّرط والقسم والتّعجب والمدح والذّم... إلخ

ب- مجموعة من المعاني النّحوية الخاصّة أو معاني الأبواب المفردة كالفاعلية والمفعوليّة والحاليّة...

---

*المقابلات: القيم الأخلاقية.

**المقابلة: الخلاف.

جـ–مجموعة من العلاقات التي تربط بين المعاني الخاصّة وتكون قرائن معنويّة عليها حتّى تكون صالحة عند تركيبها لبيان المراد منها، وذلك كعلاقة الإسناد والتّخصيص والتّبعية .

د– العنصر الرابع من عناصر النّظام النّحوي هو ما يقدّمه علماء الصّرف والصّوتيّات لعلم النّحو من المباني الصالحة للتعبير عن معاني الأبواب، وتلك الصالحة للتعبير عن العلاقات، فليس للنحو من المباني إلا ما يقدّمه له الصّرف، ومن هنا ندرك مدى التّرابط بين العلمين حتى يصبح التفريق بينهما صناعيّا لا تبرزه إلا الرّغبة في التحليل.

هـ–وأخيرا تأتي القيّم الأخلاقية أو المقابلات بين أحد أفراد كل عنصر ممّا سبق وبين بقيّة أفراده، كأن نرى الخبر في مقابل الإنشاء أو الشرط الإمكاني في مقابل الشرط الامتناعي، أو المدح في مقابل الذّم أو المتقدم رتبة في مقابل المتأخّر، وهلم جرا.

وتعدّ هذه الجوانب أساس البحث اللّغوي وهدفه الحقيقي، حيث كانت قائمة منذ القديم، كما اتّجهت إليها أنظار العلماء في العصور المتأخرة، واعتنوا بها في كلّ مستوياتها.

يَقتضي السياق الإشارة إلى علاقة اللّغة بالكلام؛ فإذا كان الكلام لا يُدرس منفصلا عن اللّغة إلا باعتبارها عملا صوتيا بحتا مقطوع الصّلة بالمعنى، كما يحدث عند فحص المرضى بالحصر والعيوب النطقيّة والنفسيّة الأخرى، واختبار أصوات المغنين والمذيعين لقبولها في الإذاعة، فإنّ الدّراسة اللّغوية للكلام تجعله –حتى على هذا المستوى الصوتي– على صلة باللّغة ولا بد أن يكون كذلك من حيث قصد به أن يدل على معنى، ودراسة أصوات الكلام"المفيد الدال على معنى إذا اقتصرت على ملاحظة الخارج والصّفات وتسجيلها فحسب فهي مقدمة لدراسة اللّغة ولكنّها ليست من صلب دراسة اللّغة أو بعبارة أخرى هي دراسة للكلام وليست دراسة للغة، ذلك أنّ هذه الملاحظات والتّسجيلات لا تتّصل باللّغة إلّا حين يتمّ تنظيمها والرّبط بينها في نظام صوتي كامل تعرف فيه علاقات المخارج وعلاقات الصفات إيجابا وسلبا، وتعرف فيه الظّواهر الموقعيّة التي يتطلّبها ورود هذه الأصوات المدروسة في السياق".

فإذا نظرنا إلى كيفية معالجة علماء اللّغة لمعاني الوحدات الكلاميّة وجدنا "أنّ جزءا من الفرق بين اللّغة والأنواع الأخرى من السلوك الاتّصالي مستمد من القصد والعرف" بدليل بعض السّلوكات اليومية وبعض المشاعر الأخرى يختلفان عن بعض.

بالنّظر إلى العلاقة التي تربط اللّغة بالفكر توجّب علينا أن نذكر الفرق بين اللّغة والكلام فإذا أردنا أن نفرّق بينهما من حيث طابع عمل المتكلّم وطابع عمل اللّغوي، يمكن أن نوردها في:

أنّ عمليّة الكلام تتمّ نتيجة وجود مؤثرات خارجيّة أو داخليّة مرئيّة أو مسموعة يستجيب لها الجهاز العصبي للمتكلّم، فيصدر أوامره إلى أعضاء النّطق...أمّا علم اللّغة فهو يبحث تلك الرّموز الصّوتية التي نَقلت الفكرة من المتحدّث إلى المتلقي، ويبحث أيضا كيفيّة تكوين هذه الرّموز الصّوتية للكلمات في تلك اللّغة، وكيفيّة تكوين الكلمات للجمل ويربط البحث اللغوي كل هذا بالمعنى الذي تحمله هذه الرّموز.